من وحي المرأة

للشاعر المصري عبد الرحمن صدقي

ديوان صغير الحجم في ٦٠ صفحة يشتمل على نيف وثلاثين قطعة من الشعر بين قصيدة ومقطوعة . كله في رثاء امرأة الشاعر ماري التي نذر لها التأبد بعدها وفاء لها ورعاية لماضي صحبتها . فقضى غير مشفق على نفسه بالتبتل وقلبه بألا يخفق لربة دل أو تطمع باصطياده ذات حسن أو غنج وقد شاء ان يكون هذا بعهود أخذها على نفسه وسجلها في ختام بعض قصائده فمنها قوله :

سأحيا كميت لم يغيب بلحده يظللني ليل من الهم مظلم
وأضرب فى صحراي في غير غاية الى ان يوافيني القضاء المحتم

وقوله: أجل كان لي قلب وزوج حبيبة فلما قضت زوجي قضيت على قلبي
وهأنذا ان طال بي العمر صائر لشيخوخة حسرى بغير معان

ولا يخفى ان هذا النوع من الوفاء بالاعراض عن النساء جملة ان حسن عند بعض فلا يعدو أنه ضرب من ضروب تعذيب النفس وشيء من العقوبة لها على ما ليس لها فيه جريرة أو ذنب . كما انه لا يخلو من تأديب لهـا وتهذيب على ما فرط من اندفاعها وشدة استرسالها في التعلق بما لا ضمان ببقائه .

ولهذا او لما هو اشد منه ظهوراً أو تواريًا من الاحتفاظ بالرجولة تامة والجري في طاعة نخوة الفحولة كاملة والحذر من الصيرورة الى ما قد يفضي الى الخور رغب العرب الا القليل منهم عن الجهر ببكاء المرأة زوجة وذهبوا بأنفسهم صعداً عن رثائها حليلة .

فمن بعض الأدلة على هذا ان الفرزدق لما ماتت زوجه النوار وامتنع عليه الشعر فيما زعموا في رثائها لعنجهيته وجفائه لم يجد بداً وقد حز به الأمر وزعزعت من أركانه الفاجعة من أن يركب أحد حدي شر اما اكراه طبعه على شعر يبكيها به واما التمثل من قصيدة أعدى أعدائه جرير في رثاء خالدة أم أولاد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جرير بما ينفس من كربه ويذهب بعض الشيء بحزنه وسرعان ما ركب أهون الشرين وفضل أيسر الخطبين وما هو أقل نيلاً من نخوته وكسراً لانفته فتمثل بملء فيه :

لولا الحياء لهاجني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولَهت قلبي إذ علتني كبرة وذوو التمائم من بنيك صغار
ولقد أراك كسيت أجمل منظر ومع الجمال سكينة ووقار
لا يُلبث القرناء ان يتفرقوا ليل يكر عليهم ونهار

الى آخر ما تمثل به ولو وجد الفرزدق في شعر غير جرير ما يترجم عن لوعته ويبرد شيئاً من غلته لفزع اليه ولجعل معرجه عليه ولكان متنحاه بعيداً عن قصيدة ثلاثة أرباعها في هجائه .

وان في قول جرير لولا الحياء لدليلاً كل الدليل على ما وقر في نفس العربي من العزة عن بكاء المرأة ورثائها حتى عن زيارة قبرها ولا غرو فقد كان هذا من العرب وما هو أشد منه حين كان عهدهم بالبداوة قريباً ونفوسهم على ما تأصل فيها من قسوة وامتناع وصعوبة انقياد الى ما توجبه الحضارة من دماثة ولين .

على انه لن يحسن بنا في حال ان ننسى ان الناس مهما بلغت في بعضهم صلابة الاكباد وقسوة الأفئدة الا الجبابرة العتاة من المتمردين على ذلة العشق وهوان الهوى وضراعة الحب ، مدينون لهذا الفريق من الشعراء حملة الأكباد المقرحة والقلوب المتصدعة والأحشاء الكليمة والترائب الملتهبة يذكرون الناس كلما نسي الناس برقائق الاعراب وحرق أهل الحضر وذوي اللوعات الصادقة الوفية منهم . وأنَّ لا يكون الناس مدينين لهم وقد عمدوا الى افئدتهم واكبادهم ونفوسهم وأرواحهم فصهروها في بوتقة الألم على لهب التوجع والتفجع ثم سكبوها دموعاً وأرسلوا الدموع شعراً تركوه وقفاً على كل ثاكل بمثل ما ثكلوا يبكي بها متى شاء كما يشاء . اذ ليس في طوق أحد أن يعير أو يستعير عيناً يبكي بها .

من ذا يعيرك عينه تبكي بها أرأيت عيناً للبكاء تعار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن في استطاعة أي انسان ان يعمد الى هذا النوع من الدموع المسكوبة شعراً يعوذ به بقدر ما ينقع من غلته كما فعل الفرزدق وهو ما هو شاعرية وترفعاً وكبرياء

وقد تخلل الديوان رسائل ثلاث الى صاحبه من الأساتذة الأدباء توفيق الحكيم وعباس محمود العقاد وعزيز أباظة فيها من الثناء على ما وفق اليه الشاعر في تصوير آلامه وهول فجيعته وارسال لوعته ما يشير الى الصدى وبعد المدى الذي أحدثته بين الأدباء قصائد (من وحي المرأة) أيام نشرها متفرقة في الرسالة والثقافة وذلك مما يغبط عليه الشاعر ويهنأ .

فالديوان بجملته آية من آيات حفاظ عهد المرأة وازماع الاقامة على مودتها بعد الموت قلما يعثر على مثله في مختلف الأعصار والأمصار وسيبقى مع أمثاله مفزعاً لكل من تعمد الدهر فجيعتهم بجلائلهم الغاليات . فهو يوشك أن يكون ثالث ثلاثة لشعر متمم بن نويرة في أخيه مالك وديوان الخنساء في أخيها صخر

ومما يستوقف نظر القارئ في (من وحي المرأة) غير حرارة التعبير عن العاطفة الحائرة والحسرة المتأججة والحرقة الغالبة هو تلك القوة التي أرادها الشاعر ارادة وعمد اليها عمداً حين خشي ان يقوده الضعف عن احتمال الكارثة الى الضعف في حوك الشعر ونسجه فكان حريصاً كل الحريص على ألا يطلع به على الناس إلا مزوداً بنصيبه من الجزالة وحظه من القوة التي كانت تساير الشاعر في أكثر خطواته وهو ينظم ديوانه حتى لقد انتهت به الى النجوة من أكثر ما يتعرض له معالجو شؤون المرأة وما تقتضيه من سعي وراء الرقة والنعومة مما قد يكون مدرجة الى اللين ومنحدراً الى الركة .

فمن الأدلة على ارادته هذه من تجنب الضعف وليأذه بكنف الجزالة انه لزم البحر الطويل بحر القوة ومعرض الفخامة والفحولة في كل الديوان فلم يخرج عنه الا في قصيدة واحده هي لوعته الأولى (أنة الزوج الثاكل) في عنفوان الصدمة قبل التفكير . كما أنه مما يثب عن الشك ولو الى قليل من اليقين ان كثيراً من عواطف الشاعر أو ما يجب أن يكون من العواطف قد حجبته ارادة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القوة هذه أو حالت دونه فبقي متغلغلاً في جوانح الشاعر معتصماً بين الصلب والترائب يأبى ان يزحزح الا الى مطمأنٍ من رقة اللفظ ونعومة مس الوزن فهو جاد في استثارته بما يقذف به الى الصحف من القصائد وان كان مقيماً على وفائه للبحر الطويل ٠

وأما احتشاد الشاعر وحفاوته بأن تكون لغة الديوان سليمة تدل على ما انتهى اليه حذقه اللغوي وتحرجه من الوقوع فيما لا يرضي العربية والساهرين لها وعليها فهو ظاهرة من ظواهر الديوان ملموسة تلازم القارئ ملازمة تحول بينه وبين ان ينصرف عنها أو يتلهى بسواها ٠ هذا وان كان هناك الفاظ ادّى اليها الاسراع في اخراج الديوان على ما قذفته القريحة لا ما يقتضيه التنقيح والتهذيب مما لم يخل من مثله ديوان أو كتاب ولو لا ذلك لكان للشاعر عنها مندوحة واسعة ومسترادٍ رحب ٠ فمن تلك الألفاظ على قلتها (بضعة) في قوله في صدر الديوان :

فأمسيت منعي في صحيفة أخبار وبضعة أشعار وصورة تذكار

وفي الديوان ما يربي على الثلاثين و (الموصد) ارى بابك المطروق امسى موصداً و (المحتم) ٠ الى ان يوافيني القضاء المحتم ٠ وحتّم والمحتم وتحتم بنتها قلما كتبت النجاة منها لكاتب أو شاعر اليوم على انه ان صح ما يدعو اليه بعض أهل اللغة من ان وجود تفعّل اللازم المطاوع لفعّل المشدد دليل على وجود فعّل هذا وصح ما حكاه الفيومي في المصباح وهو قوله (انحتم وتحتم الأمر وجب وجوباً لا يمكن اسقاطه) فهي حينئذ صحيحة : ولكن قولة صاحب المصباح هذه حكاية انفرد بها ولم يعزها الى أحد وليس أحد من شراح الحديث يشاركه بروايتها والظن كل الظن انها عن اخوانه الفقهاء ذكرها غفلة أو عصبية لهم فهي بلفظها وتفسيرها من بضاعتهم وتعابيرهم وعليها طابعهم معدودة على الفيومي في جملة ما انفرد به في مصباحه مما يجب ان يفرد له كلمة فيما سها ذوو المعجمات فأثبتوه ذهولاً عما اخذوه على أنفسهم من عدم الخروج عن أمانة النقل ٠ محمد البزم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net